بين الفناء الصوفي والبقاء الوجودي/الكينوني لدى المتصوفة.

الدكتور: أحمد شعلال
جامعة مستغانم
كلية الآداب والفنون

لا جرم أنّ الحديث عن عالم التصوف وفق ما تقتضيه طبيعة السياقات المعرفية والفلسفية التي نشأ فيها، يستدعي بالضرورة الإيمان الجازم بأنّ إدراك المفاهيم والمصطلحات الصوفية يستوجب حتما متلقيا صوفيا له من المؤهلات المعرفية ما يجعله يعي بحق أبعاد الخطاب الصوفي من داخله وخارجه.

ولعل من بين الإشكالات أو بالأحرى التناقضات التي تحملها كثير من المفاهيم الصوفية لدى المتلقي البعيد عن المدونة الصوفية مفهومي:الفناء والبقاء؛هذان المفهومان لهما من الحركية السياقية ما جعل الكثير من أهل التصوف يعطون لهما أبعادا معرفية تتماشى وما تقتضيه طبيعة الأحوال والمقامات.

وبحكم أنّ المتصوفة الذين تحدثوا عن هذين المفهومين لا يمكن أن تحصيهم هذه الورقات بالبحث والتنقيب،فسنكتفي بذكر بعض من الرواد المتصوفة الذين استطاعوا إلى حد بعيد أن يتعاملوا مع هذين المفهومين وفق ما تقتضيه طبيعة القرائن.

يشير القشيري إلى تحديد كل من مفهومي:الفناء والبقاء قائلا"أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة،وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة (...) فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة"[1]. بل يبتعد القشيري في تبيان بعد الفناء على أنّه"... ترك أمر ما ملازم للإنسان الصوفي،أما موضوعه فهو الأوصاف المذمومة أي كل الصفات الرذيلة"[2].

إنّ بعد مفهوم الفناء على حد تعبير القشيري هو جانب يقوم أساسا على مبدأ الترك والتخلي الذي لربّما يكون سببا مباشرا أو غير مباشر في بعد الذات العارفة غن السر الوجودي الكينوني الذي خلقت

---

[1]- القشيري: الرسالة القشيرية. تحقيق: عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة. القاهرة. 1972م.ص:310.
[2]- المصدر نفسه.

من أجله؛الأمر الذي يجعل بالضرورة عند ترك الذات العارفة مثل هذا الذي لا يسمن ولا يغني من جوع،أن تتحلى بصفة مناهضة لصفة الفناء وهي صفة البقاء.

غير أنّ أهل الاختصاص في المجال الصوفي يميزون في صفة الفناء الصوفي بين إطلاقين اثنين: أحدهما فناء إيجابي والآخر سلبي،وهي حقيقة جعلت من المسار الصوفي في ظل هذين الإطارين أن يحقق نوعا من الجمع بين العدم والوجود،أو بالأحرى بين دليل العيان ودليل الغياب،وهذا ما نجده واضحا لدى السهروردي حين يشير قائلا في هذا السياق"المراد بالعدم والفناء في عبارات هذه الطائفة بمعنى الصوفية،فناء للآلة المذمومة والصفة المرذولة في طلب الصفة المحمودة"[1].

ثم إنّ من طبيعة لغة التصوف لدى أصحابها أنّنا نجدهم لا يلتزمون بمبدأ القاعدة أو المعيارية في التعامل مع الظواهر؛ على أساس أنّنا نجد القشيري في تعامله مع مفهومي الفناء والبقاء يعطي أحكاما مفاهيمية تتعلق جلها بالبعد السياقي الصوفي القائم على مبدأ الإطلاق لا التقييد سواء عن طريق الحكم أم التقدير،تماما ما غدا يصرح بصريح العبارة في تبيان أهم السياقات التي يتوزع فيها كل من الفناء والبقاء على واقع الذات العارفة؛فيقول ما نصّه"... فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال إنّه فني عن شهواته؛فإذا فني عن شهواته بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته،ومن زهد في دنياه بقلبه يقال فني عن رغبته فيها بقي بصدق إنابته،ومن عالج أخلاقه فني عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشحّ والغضب والكبر وأمثال هذا من رعونات النقص يقال فني عن سوء الخلق بقي بالفتوة والصدق،ومن شاهد جريان القدرة-أي القدر الإلهية- في تصاريف الأحكام يقال فني عن حسبان الحدثان من الخلق؛فإذا فني عن توهّم الآثار من الأغيار بقي بصفات الحق،ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار ولا أثرا ولا رسما ولا طللا يقال إنّه فني عن الخلق وبقي بالحق"[2].

الثابت الذي لا مرية فيه أنّ هذا النص يحمل في عمقه الوجودي/الكينوني أبعادا معرفية تختلف باختلاف السياقات والمقامات والمتعلقة أساسا على توزع كل من مفهومي: الفناء والبقاء غبر

---

[1]- الهجويري: كشف المحجوب،دراسة وترجمة عن الفارسية وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص: 225.

[2]- القشيرية: المصدر السابق. ص ص: 61-62.

مقامات الذات العارفة وفق ما تؤمن به من حقائق وجودية وكونية تتماشى وما يسير في عمق الذات العارفة من أبعاد روحانية لا تؤمن بمبدأ التقييد بل ذلك المطلق القادر على تحقيق نوع من الانسجام بين عالم الروح وعالم الحقيقة المطلقة،وعليه لا مانع من أن نشير باختصار شديد إلى أهم الأبعاد المعرفية التي أشار إليها النص فنقول ما يلي:

- قد يعتري الذات غير العارفة شيئا من لوازم عالم الشهوات والملذات مما يكسبها تقربا نحو عالم الفناء غير المحمود،وهو في الغالب يكون عن طريق ميل الذات إلى الأشياء التي تنتهي بانتهاء الساعات والأحوال،وهو تماما عالم لا يتماشى وعالم الذات العارفة التي تسمو عن مثل هذه الأشياء لتصبو نحو عالم الإطلاق الذي لا يجيز مثل هذه الأحوال على حد تعبير صاحب عوارف المعارف السهروردي[1].
- لعل بين البعد الفنائي والبعد الاعتزالي علاقة حميمية تجعل من الذات العارفة تعيش عالمها الداخلي/الباطني الذي يهتم بالدرجة الأولى بسمو الجانب الروحي وفق عالمها الإطلاقي؛فيتحقق لدى الذات العارف عالما خاصا يختلف عما هو كائن في الواقع الاجتماعي شكلا ومضمونا وهو ما أشار إليه القشيري في نصه السالف الذكر.
- ثم إنّ في تحقيق مبدأ الفناء لدى الذات العارفة يجعل منها تتعامل مع عالم البشر حسب وفق عالمهم الخاص شريطة ألا تبتعد عن عالمها الإطلاقي؛فهي من ثمة لها القدرة في أن تحقق للناس بحكم طبيعة الاتصال أبعادا أو أحكاما ثلاثة-على حد تعبير منصف عبد الحق- التي لها القدرة في أن"...تؤسس تجربة الزهد التي انتشرت لدى الزهاد في العالم الإسلامي قبل ظهور طائفة الصوفية واختصاصهم بهذا الاسم،التصوف،ولذلك يغلب عليها الطابع العملي الأخلاقي،ولم ترق بعد إلى مستوى الفكرة الصوفية التي ستنتشر ابتداء من القرن الثالث الهجري والتي ستركز على فناء الإرادة الخاصة بالإنسان الصوفي وفناء الإحساس بالصفة البشرية في مقابل البقاء بالحق،وهما العتبتان الأخيرتان للفناء حسب القشيري"[2].

---

[1]- ينظر السهروردي: عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، ط1، 1966م، بيروت.

[2]- منصف عبد الحق: الكتابة والتجربة الصوفية،نموذج محي الدين بن عربي، ط1، 1988م، الرباط المغرب، ص ص:312-313.

• بعدها وفي المرحلة النهائية ونتيجة تحقق شرط الذات العارفة للبعد الفنائي القائم على ذلك البعد الجسدي والروحاني لعالم الملذات والشهوات،يصل بحال الذات العارفة إلى رتبة وجودية/كونية تجعل من الذات تحقق نوعا من القرب الرباني في الصفة والذات؛ هذه الحقيقة الربانية المتعلقة بقرب الذات العارفة مما تستوجبه الحقيقة المطلقة هو الذي وصفه كثير من المتصوفة بأنّه عبارة عن "فناء الصوفي عن حب الذات وتخليه عنه وعن كل ما يربطه بهذا الحب من أخلاق وقيم اجتماعية ونفسية"[1].

إنّ مثل هذه التخريجات المتعلقة ببعدي الفناء والبقاء لدى عالم المتصوف أو الذات العارفة يجعل من مفهوم كل منهما يأخذ بعدا وجوديا وكينونيا يختلف باختلاف السياقات والمقامات؛الأمر الذي يجعل من مسار البعد العرفاني يحقق نوعا من الانسجام والترابط مع عالم البقاء في ظل عالم الفناء. هذا النوع من التضارب غير المنطقي لدى ممن لا يدركون أبعادا لغة التصوف من داخلها يشعرون بنوع من القلق الوجودي الذي لربّما ترك لأهل الاختصاص يتنبهون إلى حقيقة معرفية مفادها بأنّ الخطاب الصوفي المتعلق بمفاهيم صوفية له القدرة الكافية في أن يجعل من عالم التصوف يؤتي أكله كل حين حسب المعطيات المعرفية التي لا تنتهي عند محدودية السياقات التركيبية بل هي سائرة غير منقطعة مع عالم المطلق الذي آمن به الخطاب الصوفي منذ لحظته الوجودية/الكونية.

إنّ ما يمكن قوله في شأن المفاهيم الصوفية هو أنّها تمثّل زئبقا لا يستقر على حال ولا يؤمن بمبدأ التقييد المعياري الذي ينتهي بانتهاء الأحوال والظواهر؛الشيء الذي يجعل منا ننتبه إلى مثل هذه المفاهيم التي تستوجب تقديرا واهتمام بالغا يتماشى والحوالية المعرفية والفلسفية والوجودية التي نشأت فيها.

إنّ الذي نأمل أن يكون في مجال الدراسات الصوفية في جميع مجالاتها الداخلية والخارجية هو ذلك الاهتمام بعالم الخطاب من زاوية داخلية تعطي الاهتمام البالغ إلى تلك الفروقات المفاهيمية/المصطلحاتية التي ينفرد بها الخطاب الصوفي من حيث الشكل والمضمون،وهو ما يجعل من هذا الخطاب يتنفس تنفسا وجوديا/كونيا حسب طبيعة العوالم الباطنية التي يؤمن بها،مما يجعل من مبدأ التقاطعات المعرفية تكون في أتم الاستعداد في أن تعطي وتأخذ حسب طبيعة السياقات المعرفية.

---

[1]ـ لسان الدين بن الخطيب: روضة التعريف في الحب الشريف. د .ت. بيروت. 1/397.

ببيليوغرافيا البحث:

السهروردي: عوارف المعارف. دار الكتاب العربي. ط1، 1966م، بيروت،

القشيري: الرسالة القشيرية. تحقيق: عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة. القاهرة. 1972م.

لسان الدين بن الخطيب: روضة التعريف في الحب الشريف. د .ت. بيروت.

منصف عبد الحق: الكتابة والتجربة الصوفية.نموذج محي الدين بن عربي. ط1، 1988م، الرباط المغرب.

الهجويري: كشف المحجوب،دراسة وترجمة عن الفارسية وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م.